مدخل إلى الثقافة والنقد الثقافي

« ضمن محاضرات منصة رواق »

د. تامر القزاز

مقدمة

الثقافة قانون حاكم غير مكتوب:

اهتمت التعريفات التقليدية للثقافة بتمثيلها كالشفرة السريَّة للشعوب التي يمكنها أن تحدِّد وتفسِّر بل وتتوقع عادات الشعوب وسلوكياتهم وبعض تصرفات قادتهم، إلا أن الثقافة في الحقيقة تتجاوز هذا المفهوم، فالثقافة هي القانون الفعلي الذي يحكم الشعوب، وينتج عنها تصرفاتهم وعاداتهم وتطوُّرهم الحضاري، فهي قانون غير المكتوب يعلو فوق القوانين الوضعية المكتوبة، ويحكم حينما تنهار هذه القوانين الوضعية أو يقل تأثيرها فتتصرف الشعوب حينئذ تبعًا لثقافتهم لا القوانين التي وُضِعَت لهم.

ولذلك تحدث مفارقات عجيبة عندما إذ انهارت القوانين الوضعية لشعب من الشعوب في فترة من الفترات، إذ تظهر ثقافة هذا الشعب بشكل واضح، وتحكم القوانين الثقافية وحدها تصرفات الناس. ويمكن حينئذ أن تجد بعض الشعوب المتقدمة تشيع بينهم السرقة والظلم والهمجية إذا ما سقطت القوانين الوضعية المكتوبة أو خَفَّ تأثيرها ولو لفترة بسيطة، وكذلك قد تجد بعض الشعوب الفقيرة تبقى بينهم الأمانة والأخلاق حتى وإن سقطت القوانين الوضعية بينهم؛ وهذا الفرق إنما ينتج عن ثقافة هذه الشعوب، حتى وإن اختلفت نظم حكمها أو مستوى تقدُّمها المادي.

بل تتجلى قوة القوانين الثقافية وتغلُّبها على القوانين الوضعية إذا ما حاولت الدولة أو أي فئة ذات سلطة فَرْض قوانين مخالفة لثقافة الشعب، فإن هذه القوانين تبقى مهملة غير مفعَّلة لا يعمل بها الناس طالما تعارضت مع قوانينهم ثقافتهم.

العلاقة بين الثقافة والاطلاع العلمي:

يشيع استخدام كلمة مثقَّف للدلالة على الشخص المتعلِّم واسع الاطلاع غزير المعرفة القادر على إبداء الرأي في العديد من القضايا والشئون، بينما يُنْظَر لشخص آخر في نفس البلد أو البيئة لكنه غير المتعلِّم أو غير الحاصل على درجة علمية معينة على أنه ليس له ثقافة. وهذا غير صحيح، فليس هناك شخص بلا ثقافة، فالواقع أن الثقافة عامل مشترك بين كلا الشخصين، البسيط والمتعلم واسع الاطلاع، فكلاهما اكتسبها من نفس البيئة والبلد والتاريخ والعقيدة وإن اختلفت الدرجة العلمية أو درجة المعرفة بينهما.

فالمساحة المشتركة بين ثقافة الشخصين كبيرة، وحتى الاختلافات التي توجد في ثقافة الشخص واسع الاطلاع والمعرفة نتيجة لقدرته على تعديل ثقافته وتطويرها هي اختلافات لا تمس الأصول والثوابت.

الثقافة كأداة صراع:

تحاول بعض الفئات ذات النفوذ، مثل بعض رجال الأعمال أو بعض الطبقات السياسية، ممارسة ما يُعْرَف **بالثقافة الموجهة**، وذلك من خلال محاولة تغيير ثقافة بعض الشعوب بما يضمن تحقيق مصالح خاصة بهذه الفئة، فتحاول مثلا فرض نمط استهلاكي معين أو ترسيخ مفاهيم معينة تحقق من خلالها بعض المصالح. وقد تكون هذه الفئات أيضا من خارج المجتمع، مثل الشركات متعددة الجنسيات التي ترغب في تحقيق مصالح مالية وتسويق بعض المنتجات الخاصة بها عالميًّا فتعمل على تغيير النمط الاستهلاكي لبعض الشعوب لتجعلها أكثر تقبُّلًا لمنتجاتها.

المثاقفة:

المثُاقَفَة هي مصطلح للتعبير على العلاقة بين ثقافتين. وهذه العلاقة أو المثاقفة قد تكون:

1- **مثاقفة طوعية**: ومن أمثلتها ما يحدث أثناء التجارة من تواصل واختلاط بين الثقافات، ويمكن أن تختلط ثقافتان ليحدث تتطور لهاتين الثقافتين أو لتنشأ ثقافة ثالثة.
2- **مثاقفة قصرية**: ومن أمثلتها سعي الدول المحتلة لمصر والجزائر وليبيا وغيرها من الدول في القرن التاسع عشر لفرض ثقافة جديدة ومختلفة عن هذه الشعوب.

تعريفات الثقافة

التعريفات التقليدية للثقافة:

التعريفات التقليدية للثقافة هي تلك التعريفات والقوالب الجامدة الموجودة في المراجع والرسائل والبحوث العلمية، وهي في مجملها فضفاضة وواسعة وربما محيِّرة، وهي أيضا تحتاج إلى إعادة نظر وتدقيق لتكون أكثر تأقلمًا مع الأوضاع الحالية. ومن هذه التعريفات ما يلي:

1- تعريف كلايد كلاكهون:

يعرِّف كلايد كلاكهون (Clyde Kluckhohn) الثقافة بأنها: "جميع وسائل الحياة التي تكوَّنت على مدى التاريخ، بما في ذلك الوسائل الضمنية والصريحة، والعقلية وغير العقلية"، ويضيف: "الثقافة الخاصة بأي مجتمع من المجتمعات هي نَسَقٌ تاريخيٌّ المَنْشَأ يضم مخططات الحياة الصريحة والضمنية، ويشترك فيه جميع أفراد المجتمع أو أفراد قطاع خاص معين منه".

ويلاحظ من هذا التعريف أنه -كما مَرَّ- من التعريفات الفضفاضة التي تتكرَّر فيها لفظة "كل" و"جميع"، وتتكرَّر فيها الكلمة وعكسها، وكأنه يحاول أن يشمل كل شيء، وهو أمر يجعل التعريف غير دقيق بلا شك، إلا أن عُذْرَه في ذلك أن الثقافة هي أمر متداخل مع كل شيء بالفعل.

ومن المهم في هذا التعريف فهم المقصود بأن الثقافة "نسق تاريخي المنشأ"، وهو أن الثقافة مادة تراكميَّة مرتبطة بالتراكم المعرفي للشعوب، فكل وسائل وأساليب الحياة التي تُنْسَب لشعب من الشعوب (كأسلوب الحياة الأوروبي أو أسلوب الحياة الأمريكي) يمكن إدراجها تحت مسمَّى الثقافة وبحثها من منطلق تاريخي، لأنها ليست وليدة اللحظة.

والمقصود بالمخططات الضِّمْنية للحياة المذكور في هذا التعريف، هو ما يرغب ويطمح الشخص للقيام به، حتى وإن لم يقم به نتيجة لأي عوائق أو ظروف اقتصادية مثلا، وهذا النمط هو أولى بالدراسة لأنه يعبر عن حقيقة رغبات الشخص وتفكيره.

ونبَّه التعريف على إمكانية أن يقوم "أفراد قطاع خاص معين" من المجتمع، أو فئة صغيرة منه بتكوين ثقافتها الخاصة بها، ليصبح في المجتمع الواحد ثقافتان أو ثلاثة أو أكثر، تتعايش مع بعضها البعض.

2- تعريف جورج نيللر:

يعرِّف جورج نيللر (George F. Kneller) الثقافة بأنها "الطريقة التي نأكل بها، وننام بها، والتي نغتسل بها، ونرتدي ملابسنا بها، ونذهب بها إلى العمل، وهي اللغة التي نتحدث بها، والقيم والمعتقدات التي نتمسك بها، والسلع والخدمات التي نشتريها، والطريقة التي نشتريها بها، والطريقة التي نقابل بها أصدقاءنا والغرباء عنا".

ويظهر أيضا من هذا التعريف أنه يحاول أن يشمل جميع الأعمال التي نقوم بها بطريقة تلقائية خلال اليوم منذ أن نستيقظ في الصباح وحتى أثناء النوم، فهو يعتبر جميع هذه السلوكيات وتفصيلات الحياة وأنماطها إنما هي أمور ناتجة عن نمط ثقافي معيَّن.

3- تعريف د. الفاروق زكي يونس:

يقول الدكتور الفاروق زكي يونس: "فالأسلوب الذي يسير عليه الناس في حياتهم إنما يعتمد على طبيعة الثقافة السائدة في المجتمع، مع بعض الآثار التي تتركها العوامل الجغرافية والبيولوجية، وهنا تبرز أهمية الثقافة كعنصر لا غنى عنه في الدراسة التي تهدف إلى التعرُّف على الحياة الاجتماعية للناس، وتفسيرها وفهمها، وهي موضوع البحث العلمي الذي يعنى بالتحليل والتنظير".

ومن الملاحظ هنا التنبيه على دور العوامل الجغرافية والبيولوجية في إنتاج الثقافة السائدة للمجتمع.

4- تعريف إدوارد تايلور:

وهو عمدة التعريفات وأشهرها، وفيه يعرِّف إدوارد تايلور (Edward Burnett Tylor) الثقافة بأنها "ذلك الكلُّ المركَّب الذي يشتمل على المعرفة والمعتقدات، والفنون والأخلاق، والقانون والعُرْف، وغير ذلك من الإمكانيات والعادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عُضْوًا في مجتمع".

ويظهر اختلاف هذا التعريف عن التعريفات السابقة في كَوْنه لم يتحدث عن الأنماط المعيشية المختلفة من مأكل وملبس ومسكن، وإنما ركَّز عن الجانب الروحي من المعرفة والمعتقدات وغيرها من المنتجات العقلية.

كما نبَّه التعريف على أن العضوية في المجتمع هي التي تمنح الثقافة أو تساهم في تقبُّلها.

5- **تعريف شيلر وماثيو أرلوند:**

حاول هربرت شيللر وماثيو أرلوند (Herbert Schiller and Matthew Arnold) تحديد مَن الذي ينشئ الثقافة، فقالوا بأن "الدولة هي الراعية للمجتمع، وأن عليها غرس القيم الثقافية في المجتمع وتهذيبه وصيانته".

وهذا التعريف هو صورة صريحة من الثقافة الموجهة، وكأنه ينظر إلى المجتمع على أنه طفل يحتاج باستمرار إلى التأهيل والرعاية والتهذيب كي يستطيع أن ينمو وينضج، والدولة هي التي ستقوم بهذه الرعاية والتأهيل، ولذلك لاقى هذا التعريف الكثير من الانتقادات.

كما أن هذا التعريف به مبالغة في المثالية، إذ يفترض أن جميع الدول هي دول صالحة وراشدة ستعمل على تحقيق مصلحة شعبها وغرس القيم الثقافية الحسنة فيه.

الاختلافات الثقافية:

أكَّد فانز بواس (Franz Uri Boas) على خطأ النظرية القائلة بأن الاختلافات بين الشعوب مرجعها إلى العرق والجنس، فلا يوجد اختلاف بين الشعوب البدائية والمتحضرة إلا في الجانب الثقافي، الذي هو جانب مكتَسَب وليس غريزي، ولا يمكن أن نرجِع تقدُّم وتحضُّر شعب من الشعوب إلى جنس هذا الشعب أو عرقه، كما لا يمكن أن نرجِع بدائية شعب من الشعوب لجنسه أو عرقه.

ويؤكِّد ذلك كلام دوركايم (Émile Durkheim) أنه لا وجود لشعب بدون ثقافات، أو لشعوب طبيعية، فلكل شعب ثقافته الخاصة به، وهذه الثقافة لا يشترط أن تسير نحو ما هو أكثر رقيًّا من وجهة نظر ثقافة أخرى تعتقد أنها أكثر رقيًّا وتطوُّرًا، وربما ترى أنها منوطة بتطوير ورفع كفاءة ثقافات الشعوب الأخرى.